

في مسألة الإخفاق الديمقراطي العربي

الخليج

عبدالله علي العليان ...

2007-12-31

ارتبطت مسألة الديمقراطية في الواقع العربي منذ عدة عقود بأفكار وأطروحات ومناقشات ودعوات، باعتبار أن قضية الديمقراطية أثبتت نجاحها في دول وحضارات لقرون عديدة، وكونها لا تتنافر مع الدين أو تتقاطع معه إذا ما سيجت بدساتير وقوانين تحول دون مخالفتها للدين أو القيم أو الأخلاق السائدة، ولذلك فإن هذه القضية لقيت اهتماماً كبيراً وطرحاً متزايداً من جانب مفكرين وعلماء وباحثين لمناقشة مدى تلاؤم الديمقراطية مع واقعنا العربي، وهل الديمقراطية فكرة مجردة لثقافة بعينها؟ أم أنها آليات وطرق ووسائل يمكن أن تتوافق مع أي حضارة أو شعب أو أمة؟

طرح "مقدمة لبيان ديمقراطي عربي.. في المسألة العربية" في كتابه الصادر حديثاً عن مركز دراسات الوحدة العربية الموسوم يرى أن الديمقراطية ظاهرة في الكاتب والمفكر العربي عزمي بشارة هذه القضية باستفاضة على بساط المناقشة والبحث أخذ النظام الديمقراطي المتطور كظاهرة اجتماعية جاهزة وقائمة، يصبح بالإمكان تسليط الضوء على "العصر الحديث، فإذا إشكالية الانتقال إلى الديمقراطية من زاوية الفرق بين تأسيس الديمقراطية من جهة، أو تأسيس النظام الديمقراطي تاريخياً، وهي عملية جرت خلفها النظام وراءه، وعملية إعادة إنتاج نظام ديمقراطي من جهة أخرى، أي توفر مقومات إعادة إنتاج النظام جدلية) وهو فلسفياً تقسيم قريب من تمييز هيغل بين لذاته، وهذا يشمل تطوره في إطار الظاهرة نفسها، بعد أن نضجت كنظام، والمقصود هو التمييز بين عملية إعادة إنتاج الظاهرة الاجتماعية كظاهرة نشأت وباتت (جدلية الوجود) في مقابل (الجوهر مستقلة ذات حدود، أي كظاهرة تعرف ذاتها عبر إعادة إنتاج ذاتها، وبين عملية إنتاجها التاريخية كتوليد لظاهرة اجتماعية". مازالت معتمدة في وجودها على عوامل نشونها التاريخية السابقة لها وعوامل أخرى محيطة بها

أن هذه الديمقراطية لا يمكن أن تتأسس أو أن يتم إنشاء نظام ديمقراطي في مرحلتنا المعاصرة كعالم "لكن عزمي بشارة يرى يمكن تخيل دور شخص وأحزاب غير ديمقراطية في عملية تطوير الديمقراطية ونشوتها "عربي من دون ديمقراطيين بل ولكن لا يمكن أن يبدأ عن سبق الإصرار بتأسيس تاريخياً من دون أن تدري ومن دون وعي منها لطبيعة الدور الذي قامت به نظام ديمقراطي في أي منطقة بما في ذلك المنطقة العربية من دون أن يكون الديمقراطيون متورطين في عملية إنتاج "الديمقراطية فكرياً وبرنامجاً

ولكي يفهم المقصود من الكلام عن ديمقراطيين كما يقول، لا بد من الإدراك هنا أنه في سياق الحديث عن البشر الفاعلين سياسياً الذين يطلق عليهم اسم الديمقراطيين ويرفعون الديمقراطية شعاراً وبرنامجاً في ظرف نظام غير ديمقراطي تكتسب الديمقراطية. ولا يصح أن تعزى للثقافة السياسية أهمية عند كل فئة كما يوجد عند الحديث عن ثقافة الفاعلين سياسياً. كثقافة وكقيم أهمية ولكي يتضح المقصود مرة أخرى، يجب أن يؤخذ بجديّة تعريف الديمقراطيين لأنفسهم كديمقراطيين وممارستهم تشجيع المشاركة الجماهيرية ودفاعهم عن قيم الحرية والمساواة حتى لو لم يتطابق هذا التعريف مع الفهم الجاري أو المفصل فمن الواضح أنه لا معنى للديمقراطية في هذا العصر من دون تصور ها كنظام حكم. للديمقراطية الليبرالية كنظام حكم حالياً تمثيلي يضمن إمكانية انتقاله بتداول السلطة في انتخابات دورية، وتضمن فيه الأغلبية حقوق الأقلية، كما تضمن الحريات والحقوق المدنية، وهذا لا يعني أن الديمقراطيين الذين يعون أنفسهم كديمقراطيين قد حملوا دائماً هذا التصور المتكامل للديمقراطية كنظام حكم ديمقراطي ليبرالي

كما أن الظروف السائدة في بعض المجتمعات قد لا تكون الديمقراطية ناجحة فيها لأسباب عديدة منها قضية الاحتقان الطائفي لأن الظروف المتوترة والاحتقان السياسي لظروف عديدة. والتوتر السياسي، والاحتلال القسري كفلسطين والعراق وغيرها يحول دون نجاح الديمقراطية على الرغم من ادعاء بعض السياسيين الغربيين أن الديمقراطية سيتم تأسيسها في هذه الدول أو المجتمعات في ظل الاحتلال كالعراق وفلسطين وستكون النموذج المحتذى لكل الدول المجاورة

الديمقراطية في مضامينها وتوجهاتها وقبولها أو رفضها مسألة معقدة وتحتاج إلى استقصاء وتبيان الأسس الفاعلة التي تجعل عزمي بشارة عن أزمة الديمقراطية في عالمنا العربي كما طرحها في ويتساءل د. منها دواء ناجعاً لإشكاليات وتآزمات قائمة

لماذا تنجح الديمقراطية في كل مكان ولا تنجح في العالم العربي؟ :بعض فصول هذا الكتاب، وهو تساؤل جدير بالطرح فيقول
يمكن الادعاء من دون مبالغة أن هذا النوع من الأسئلة رائج ليس فقط في الأوساط الشعبية بل أيضاً في أوساط المثقفين
وفي الحقيقة نبدأ بالقول إنه لا . ويفترض البحث عن إجابة فعلية أو إجابات محتملة أن الذي يسأل، يسأل فعلاً، لا سجلاً أو تدمراً
معنى للسؤال الأول لأن الديمقراطية لم تنجح في كل مكان كما يدعى عادة على سبيل المبالغة، ولأنه لم تجر أصلاً محاولة
لماذا لا :أما بالنسبة للسؤال الثاني .فنجاح التجربة الديمقراطية يقاس بعد أن تقوم التجربة .ديمقراطية عربية لكي تنجح أو تفشل
وقد يكتسب السؤال .يحصل تحول نحو الديمقراطية، فهذه ليست عملية تحول طبيعي، وهي لا تقيم بمعزل عن الفعل والممارسة
معنى إذا تجاوز التذمر أو حالة الشكوى الدائمة لدى أوساط المثقفين والطبقة الوسطى من تعذر الانتقال إلى الديمقراطية في
وهو إذا لازم حالة التذمر ولم يغادرها إلى الفعل فلا بد أن يكشف عن عقدة نقص أحياناً، وتزلف للعنصرية ضد .الدول العربية
ولا يقود بالتأكيد إلى عمل ديمقراطي أو برنامج عمل .العرب أحياناً أخرى

الحديث عن الديمقراطية أصبح تقليعة العصر كما يقول البعض، لكن هذه الموضة أو التقليعة بعد السكوت عن الاشتراكية
والرجعية التي أصبحت مرحلة غابرة تحتاج لكي تقبل وتتواءم مع القيم والتقاليد السائدة ألا يتم تطبيقها قسراً وإرغاماً على
الشعوب والمجتمعات، مهما كانت مزاياها وجدواها، لأن الفرض مهما كانت قدرته على التطبيق لا يستطيع النجاح على المدى
المأمول والتجارب أثبتت ذلك في حالات كثيرة